ويعود اختيارنا للبعد الديني للصراع لان الدين اليوم هو الاكثر حضورا وفعالية والاكثر اثارة للجدل والصراع على المستوى العالمي وخصوصا في الشرق الاوسط ،وان المتشددين الدينيين من الطرفين هم العقبة امام دعاة التسوية السلمية ، ومع ذلك فأن هذا البعد الديني هو اهم الغائبين عن طاولة المفاوضات ، الامر الذي يطرح تسائلا هل للسلام ان يستتب في المنطقة دون حسم الصراع الديني والتخفيف من حدة التطرف وخصوصا في الجانب اليهودي المتشبث بمقولات دينية تتناقض مع روح العصر ؟
أولا : البعد الديني في المشروع الصهيوني
يمكن رصد البعد الديني في المنظومتين اليهودية والصهيونية، - مع أن الثانية مؤسسة على الأولى- بما يلي : -
I - بالنسبة للمنظومة الأولى - الديانة اليهودية- فمن المعروف أن الكيان الصهيوني مشروع استعماري استيطاني ‘
مغلّف بالدين وبالأسطورة، وتحديدا بمقولتي شعب الله المختار وأرض الميعاد والمقولتان متلازمتان.
إن مقولة شعب الله المختار هي من اكثر المقولات عنصرية عبر تاريخ البشرية القديم والحديث، وهي أخطر من النازية ومن العنصرية المعاصرة لا لأنها تقول بما تقول به العنصرية من تمييز وتفضيل لجنس من البشر على بقية الأجناس، بل أيضا لأنها تضفي بعدا دينيا على هذه العنصرية، إنها مقولة تزعم أن الله سبحانه وتعالى هو الذي فضل اليهود على غيرهم من الأقوام، ولأنهم شعب الله المختار فيجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم، وبالتالي من حقهم ان لا يلتزموا بما تلتزم به الشعوب الأخرى من قوانين واعراف،- وهذا ما طبقته النازية الهتلرية في مفهومها للمجال الحيوي وفي تبرير احتلالها للدول الأخرى،- وإذا كان الكيان الصهيوني يقوم اليوم باحتلال أراض دول عربية ويعتدي على سيادة دول أخرى، ويرفض احترام القوانين الدولية، ويسعى للهيمنة على المنطقة الشرق أوسطية سواء حسب المشروع الشرق اوسطي لبيريس أو حسب المشروع الهيمني الأمني العسكري لنتنياهو فما ذلك إلا لأن اليهود يعتبرون انفسهم شعب الله المختار، والشعوب الأخرى هم (الأغيار )الذين ذكرتهم التوراة والذين يجوز قتلهم واستباحة عرضهم وأرضهم. ويرتبط بمقولة شعب الله المختار ويحيل إليها مقولة أرض الميعاد والتي تعني ان (ربهم ) وعدهم -شعبه المختار -بأرض خاصة بهم تمتد من النيل إلى الفرات ، وفلسطين هي قاعدة المنطلق وهي المركز الديني لهذه الدولة، وحيث أن رب اليهود وعدهم بهذه الأرض فإن قيام دولتهم على هذا الأساس يصبح عملا دينيا والدفاع عنها واجبا دينيا والحفاظ عليها واجبا دينيا ومن يفرط بجزء من هذه الأرض يعد خارجا عن الدين،ومن هنا يمكن فهم مقتل اسحق رابين والاحترام والتقدير الذين حضي بهما قاتله وكل الارهابيين والمتطرفين اليهود والمكانة المتميزة التي يحتلها المتطرفون الدينيون في النظام السياسي الاسرائيلي .
هذا الإضفاء للبعد الديني على المشروع الصهيوني الاستعماري لا يقتصر على كونه عنصر تعبئة وتحريض ليهود فلسطين بل توظفه الصهيونية العالمية لحشد المسيحيين في أوروبا والأمريكيتين، لتبني هذا التصور، حيث أن الكتاب المقدس عند المسيحيين يشمل العهدين : العهد القديم وهو التوراة والعهد الجديد وهو الانجيل، بمعنى أن الصهيونية واليهودية العالمية تمارسان عملية مماهاة لربهم المذكور في التوراة بالله رب العالمين، وبالتالي اعتبار كل ما جاء في التوراة - التي وضعها أحبارهم - مرجعا لتاريخ البشرية ومرجعا دينيا ملزما لكل العالم أو على الأقل ملزما لليهود والمسيحيين، ومن هنا يمكن فهم هذا التحالف بين الكيان الصهيوني والولايات المتحدة الأمريكية.والدول الغربية .
لن نكلف أنفسنا عناء تبيان الأغلاط والتحريفات بل والإساءة إلى الله جلت قدرته، والتي تتضمنها مقولتا شعب الله المختار وأرض الميعاد، ولكن يمكن التساؤل هنا هل يُعقل أن يكون الخالق جلت قدرته يؤمن بالعنصرية فيميز شعبا عن شعب؟ أن يفرق الله رب العالمين بين عباده، وهل يُعقل ان الله جلت قدرته كان قبل ثلاثة آلاف سنة يرسم حدودا سياسية للشعوب ؟
لو ان لأمة ان تزعم انها شعب الله المختار فهي الأمة العربية الإسلامية، ألم يختار الله سبحانه وتعالى العرب من بين كل الأمم لينزل القرآن بلغتهم ؟ وألم يختار محمدا عليه السلام، من بينهم ليكون خاتم الأنبياء ؟ ومع ذلك لم يقل العرب يوما انهم شعب الله المختار، لأن الإسلام لا يفرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى، ولأن المسلمين يؤمنون بأن الله سبحانه وتعالى لا يمكنه أن يميز بين الناس والشعوب إلا بالإيمان والعمل الصالح.
هذا البعد الديني وظف بشكل مكثف من طرف الحركة الصهيونية المتحالفة مع الحركة الاستعمارية لإقامة الكيان الصهيوني، حيث مزجت الصهيونية او وحدت بالعنف والتآمر والتزوير ما بين الدين والقومية والدولة، ويقول بن غوريون رجل الدولة وأحد أهم مفكري الحركة الصهيونية الأوائل : ( إن الصهيونية تستطيع وبإمكانها اجتياز الهوة بين المثال الديني التاريخي إلى الواقع، عن طريق العنف ... إذ أن العنف هو الوسيلة الوحيدة لفرض الاتساق الهندسي على جدل الواقع ).
هذا التوظيف التحريفي والابتزازي للدين يظهر في سياسة الكيان الصهيوني اليوم، فهذا الكيان هو في ممارساته من أكثر دول العالم عنصرية وصلفا واستعلاء وهو الوحيد الذي يضع نفسه فوق الشرعية الدولية وقراراتها، وهو الوحيد الذي يحتل أراض دول أخرى وهو الوحيد الذي يعطي نفسه الحق بالاعتداء على سيادة الدول المجاورة، وهو الدولة الوحيدة في العالم التي تعطي جنسيتها لليهودي لمجرد أنه يهودي مهما كان أصله ولونه، والكيان الصهيوني هو الدولة الوحيدة التي تريد تأسيس دولة دينية يهودية خالصة، لأنه في منظورهم شعب الله المختار لا يمكنه أن يتساوى مع الأغيار - والفلسطينيون أغيار كما تقول توراتهم -.
إذن في ظل كيان يقوم على أساطير دينية ويريد دولة يهودية خالصة، وينظر للآخرين كأغيار والأغيار حسب التوراة يجوز قتلهم وتعذيبهم وانتهاك حرماتهم، في ظل كيان تقول نصوص دينهم كما جاء وعلى لسان نبيهم يشع بن نون « ابقِروا بطون الحوامل، اذبحوا الأطفال، اقتلوا الرجال، احرقوا الأرض ثم استولوا عليها»، في ظل كيان يطبق هذه النصوص فيرتكب مجازر دير ياسين وقانا ويكسر عظام أطفال الحجارة، ويحتل الأرض ويدمر البيوت ويعتقل ويُرهب، ويكدّس الأسلحة النووية ويعتبر نفسه فوق القوانين والأعراف الدولية لأنه شعب الله المختار، في ظل هكذا كيان هل يمكن الدخول معه في علاقات تقوم على التسامح والسلام ؟
لا يعني قولنا هذا الدعوة إلى الحرب والقتال الآن، ولكن المقصود هو معرفة العدو الصهيوني جيدا، وإن كانت موازين القوى المحلية والتحولات الدولية والضغوطات الخارجية تفرض رفع شعارات التسامح والسلام، فإنه عليا أن نتهيئ للحرب وكأنها ستقوم غدا وعدم المراهنة على لغة السلام الأمريكية والصهيونية، وعدم وضع بيضنا في سلة واحدة، فالقائد او السياسي الذكي هو الذي يحسب حساب أسوأ الاحتمالات، ونعتقد ان الكيان الصهيوني اليهودي بتركيبته وسياسته الحالية لا يمكنه أن يقبل بالعيش بسلام مع دول المنطقة.
ثانيا : البعد الديني الاسلامي للصراع
نظرا لأن الساحة السياسية العربية تعج بالتيارات والأحزاب والنظم السياسية، ونظرا لأن التدين أصبح سببا ونتيجة في نفس الوقت لأزمة الفكر السياسي العربي، فقد تعددت التصورات حول موقع البعد الديني في الصراع مع الكيان الصهيوني، ولكن بالرغم من ذلك يمكن رصد هذا البعد على مستويين : الأول العلاقة الإسلامية اليهودية عبر التاريخ، والثاني التصور الفلسطيني للبعد الديني للصراع مع الكيان الصهيوني.
I - بلاد الإسلام بلاد التسامح والتعايش بين الديانات :
يجمع كل المؤرخين، أجانب وإسلاميين أن اليهود لم يشعروا بالطمأنينة والأمان خلال تاريخهم إلا في ظل الدولة الإسلامية، فهذه كانت دائما بلد التسامح والتعايش بين أصحاب الديانات، وان كل حالات الاضطهاد التي تعرض لها اليهود عبر التاريخ كان على يد شعوب غير إسلامية وغير عربية، وفي هذه الحالات كانوا يلتجئون إلى ديار الإسلام طلبا للحماية والأمان، وهذا يعود إلى أن الإسلام عكس يهودية الصهاينة، يعترف بالديانات الأخرى ويحترم أصحابها ويصون حقهم في ممارسة شعائرهم الدينية، كما يصون كنائسهم وكنسهم، كما شغل اهل الذمة من يهود ونصارى مناصب رفيعة في دولة الخلافة الاسلامية ، وفي العصر الحديث شغلوا مناصب مهمة في الدول العربية التي ينتمون اليها ، ففي المغرب مثلا شغلوا اكثر من وزارة واحد كبار مستشاري الملك اليوم -اندريه ازولاي –من الملة اليهودية .
ليس هذا وحسب بل ان المسلمين انصياعا لما ورد في القرآن الكريم يعتبرون سيدنا ابراهيم أبو الأنبياء واول من قال بالإسلام، وان موسى وداود وسليمان وعيسى أنبياء لهم احترامهم وتقديرهم، ويسمي المسلمون أبناءهم بأسماء أنبياء اليهود والمسيحية دون حرج، وهذا عكس ما يجري عند اليهود والمسيحيين، فلا يوجد يهودي أو مسيحي يسمى اسمه محمد أومصطفى، أو باسم خليفة من الخلفاء الراشدين أو بأي اسم إسلامي، فالمشكلة هنا ليست اننا الذين نرفضهم أو لا نعترف بديانتهم بل هم الذين لا يحترمون ديننا أو يعترفون به إلا القلة منهم.
ومن هنا نلاحظ أنه وقبل ظهور الحركة الصهيونية في نهاية القرن الماضي، وقبل تحالفها مع الحركة الاستعمارية، لم تكن هناك أية مشكلة ما بين اليهود والمسلمين سواء داخل فلسطين أو خارجها، ولم تبدأ العلاقة بين الطرفين تأخذ طابعا صراعيا عدائيا إلا بعد انتقال الصهيونية من فكرة إلى حركة سياسية تمارس سياسة الاستيطان في فلسطين وتعمل على طرد أصحاب الأرض العرب من مسلمين ومسيحيين من أرضهم لإحلال المهاجرين اليهود الذين جلبتهم من شتى بقاع الأرض.

II - البعد الديني في المشروع السياسي الوطني الفلسطيني :
حتى بعد انكشاف المشروع الصهيوني، استمرت الحركة الوطنية الفلسطينية بعيدة عن التعصب الديني، حيث يلاحظ أن اول ظهور للحركة الوطنية الفلسطينية في نهاية العقد الثاني من هذا القرن كان خلال جمعيات حملت اسم الجمعيات الإسلامية - المسيحية وهي التي تحولت فيما بعد إلى أحزاب، وكان ظهور هذه الجمعيات كمؤطر للحركة السياسية الفلسطينية ومُعبّر عن مطالب الشعب الفلسطيني له دلالة واضحة وهي ان الشعب الفلسطيني متحد في مواجهة الغزو الصهيوني والاستعمار البريطاني، وأنه شعب يؤمن بالتعايش بين أصحاب الديانات في الوطن الواحد.
إلا أن قيام الكيان الصهيوني عام 1948 وممارسته لسياسة تهويد الأرض وتدنيس المقدسات، ثم احتلاله لبقية أجزاء فلسطين وأراض عربية أخرى عام 1967، وإعلانه ضم القدس واعتبارها عاصمة موحدة له، كل هذا استفز الشعور الديني عند الفلسطينيين والعرب والمسلمين، هذه الإثارة والاستفزاز للشعور الديني الإسلامي لم يكن موجها ضد أصحاب الديانة اليهودية بالمطلق، بل انصب على الحركة الصهيونية والتعصب الديني اليهودي، وحتى لا تظهر الحركة الوطنية الفلسطينية بمظهر المعادي للدين اليهودي رفعت شعار اليهودية غير الصهيونية، أي أنها ميزت بين اليهود كأصجاب ديانة سماوية والصهيونية كفئة من اليهود يوظفوا الدين لأغراض سياسية استعمارية، هذا الشعار الذي تحول إلى سياسة رسمية عند م.ت.ف وتم التنصيص عليه في مقررات المجلس الوطني الفلسطيني.
إن اعتبارات متعددة وقفت وراء تغييب البعد الديني كمحدد رئيسي في المواجهة مع الكيان الصهيوني طوال عقد السبعينات، فبالإضافة إلى ما ذكرناه حول طبيعة الدين الإسلامي الذي يعترف ويحترم أصحاب الديانات السماوية، فإن طبيعة التركيبة السكانية في فلسطين كانت عنصرا يدفع في هذا الاتجاه، حيث يوجد مواطنون فلسطينيون مسيحيون، والعديد من قادة حركة المقاومة الفلسطينية وشهدائها كانوا مسيحيين، جورج حبش، نايف حواتمة، غسان كنفاني، كمال ناصر، ناجي علوش، منير شفيق - قبل إسلامه - الخ، بالإضافة إلى ذلك وهو العنصر المهم أن الفكر السياسي العربي الذي ساد خلال تلك الفترة- وكان الفكر السياسي الفلسطيني جزءا منه -كان فكرا قوميا اشتراكيا ويساريا، لا يؤسس برنامجه على أسس دينية بل طغت عليه العلمانية، وربما كان لتحالف حركة التحرر العربية آنذاك بما فيها الحركة الوطنية الفلسطينية مع المعسكر الشيوعي دور في تهميش دور الدين كعامل من عوامل الصراع.
ولعل أبرز شعار رفعته حركة المقاومة الفلسطينية آنذاك واعتبرت تحقيقه هدفا لها هو الدولة الفلسطينية الديمقراطية العلمانية، التي يتعايش فيها كل أصحاب الديانات المقيمين على أرض فلسطين وقد ووجه هذا الشعار - الهدف - بعاصفة من الانتقادات غالبيتها من أحزاب وقوى سياسية علمانية يسارية حيث رأت هذه القوى ان هذا الشعار يتناقض مع نصوص الميثاق الوطني الفلسطيني، لأنه يعترف لليهود الذين جلبتهم الحركة الصهيونية إلى فلسطين بعد 1948 بحقوق في فلسطين مساوية لحقوق العرب أصحاب الأرض. وإذا كانت بعض قوى اليسار في الكيان الصهيوني رحبت بهذا الشعار فإن الدولة العبرية ومعها غالبية القوى السياسية وخصوصا اليمينية اليهودية عارضته بشدة ورفضته لكونه يتضمن إلغاء وجود دولة ( إسرائيل ) ويتناقض مع فكر وهدف الحركة الصهونية ألا وهو إقامة دولة يهودية خالصة.
وكان لا بد من انتظار الثمانينات بما حبلت به من أحداث وتحولات منها تراجع المد القومي اليساري العلماني، الأمر الذي فسح المجال للتيار الأصولي ليملأ الفراغ، وقيام الثورة الإيرانية التي عززت من موقع الحركات الدينية، ثم انهيار المعسكر الاشتراكي حليف القوى اليسارية والعلمانية الفلسطينية والعربية، وفوق كل ذلك كان الإرهاب الصهيوني المتعاظم وعدوانه المتواصل، وقمعه الشرس لانتفاضة الشعب الفلسطيني، ورفضه لكل القوانين والشرائع الدولية، وعجز قوى اليسار الاسرائيلي عن بلورة موقف سياسي مؤثر داخل الكيان الصهيوني يمكنه لجم اليمين اليهودي المتطرف، كل هذه الأحداث أدت إلى ظهور خطاب سياسي فلسطيني ذي مضمون إسلامي يقاسم الخطاب الرسمي العلماني لـ م.ت.ف. الساحة السياسية إن لم يكن داخلا معه في صراع ذي أبعاد استراتيجية حول طبيعة الصراع مع الكيان الصهيوني ومنهاج حله.
إذا كانت الانتفاضة الفلسطينية هي اللحظة التاريخية والساحة العملياتية التي أظهرت قوة التيار الديني في الساحة الفلسطينية، فإن اتفاقية أوسلو التي وقعتها م.ت.ف. مع الكيان الصهيوني وما استدعته من استحقاقات سياسية وأمنية كانت المناسبة ليعلن هذا التيار الديني برنامجه السياسي ذي الأبعاد الدينية الواضحة التناقض مع الطرح السياسي الرسمي للسلطة الوطنية اللسطينية، وكان اهم ما نتج عن دخول البعد الديني في الصراع مع الكيان الصهيوني بشكل مكثف مدعوم بتأييد شعبي، هو إعادة النظر في طبيعة الصراع مع الكيان الصهيوني، هل هو صراع سياسي حول الأراضي المحتلة عام 1967 ، وبالتالي يمكن أن يحسم الصراع باتفاقيات سياسية بين الطرفين، أم هو صراع ديني بين اليهود والمسلمين لا يحسم إلا باجتثاث الوجود اليهودي الصهيوني في أرض فلسطين ؟ فإذا كانت السلطة الوطنية الفلسطينية اتخذت موقفا واضحا باستعدادها لطي صفحة الصراع مع الكيان الصهيوني إذا قبل هذا الأخير بإقامة دولة فلسطينية عاصمتها القدس الشرقية، وهو نفس موقف العديد من الدول العربية ، فإن موقف حماس والجهاد الإسلامي يتذبذب ما بين إعلانه للجهاد حتى تحرير كامل التراب الفلسطيني واعتبار الصراع صراعا دينينا لا حلول وسطا فيه ، وموقف وسطي عبر عنه الشيخ أحمد ياسين لا يمانع ب ( هدنة ) مع الكيان الصهيوني إذا قبل بالانسحاب من الأراضي المحتلة عام 67 بما فيها القدس الشرقية وإقامة دولة فلسطينية مستقلة، وهذا الموقف لم يتجذر بشكل نهائي، ويبدو انه يندرج في إطار بادرة حسن النية تجاه السلطة الفلسطينية وإعطائها فرصة لمحاولة تحقيق برنامجها السياسي مع احتفاظ حماس والجهاد الإسلامي ببرنامجها البديل إذا ما فشلت السلطة في تحقيق هذا الهدف.
وأخيرا يمكن القول أن البعد الديني سيبقى عنصر صراع مع الكيان الصهيوني حتى وان حسمت أوجه الصراع الأخرى من سياسية واقتصادية وقانونية، فما دام الكيان الصهيوني يؤسس وجوده على عقيدة صهيونية يهودية متعصبة، وما دام يستحضر بقوة كل الرموز والأساطير الدينية اليهودية التي لا تعترف بأصحاب الديانات الأخرى مسلمين ومسيحيين كأصحاب حق في فلسطين، وفي ظل التحالف المتين بين الجماعات الدينية اليهودية المتطرفة والنخبة السياسية الحاكمة، فإن كل هذا سيكون مدعاة لأن يستحضر الفلسطينيون والعرب البعد الديني في مواجهتهم مع العدو الصهيوني، وهم في ذلك لن يكونوا متطرفين دينيين ولا معادين لليهود بل دعاة حق ومدافعين عن حقوقهم التاريخية والدينية.
لقد مد العرب أيديهم للسلام ليس منذ مدريد بل منذ رفع الفلسطينيون شعار - هدف الدولة الفلسطينية الديمقراطية، وما زالوا مادين أيديهم للسلام دون أن يجدوا من الكيان الصهيوني إلا كل صد وصلف واستهتار، نعم للتسامح والسلام ولكن من منطلق القوة والكرامة وبما لا يمس الحقوق التاريخية المشروعة للعرب في أرضهم